استحضار الخطاب القرآني في الخطاب الأدبي بين الرّفض والقبول

د . خثير عيسى
المركز الجامعي بلحاج بوشعيب
عين تموشنت

الملخص :

بنى القرآن الكريم ثقافة عربية جديدة ، انتقلت من التجسيد إلى التجريد ، وغيّرت في الطبيعة العربية سلوكا وفكرا وأدبا ، وانتقلت هذه الثقافة القرآنية إلى إعادة تشكيل الإنسان العربي وفق المبادئ والقيّم التي حملها الخطاب القرآني، واستطاع هذا الخطاب أن يمارس سلطته على النخبة العربية المؤسسة للفكر وللثقافة العربية ، فكان فتحا عظيما في قيام حضارة عربية ، اتخذت اللسان العربي معبرا عن الأمة وفكرها والنص القرآني مصدرا ملهما للتشريع وللتقعيد وللتنظير .

وتجلّى تأثير الخطاب القرآني في نفوس الشعراء والأدباء ، فاستأثر عليهم ببيانه وروعة خطابه وجمال نسجه، وقوة أساليبه، ممّا جعلهم ينهلون ويقتبسون منه، ويستحضرونه في نصوصهم الشعرية والنثرية، فانبرى بعض العلماء يحددون ويحذرون ويجيزون ما ينبغي للشاعر أو للأديب أن يوظفه أو يتحاشاه من النص القرآني باعتباره نصا مقدسا، لا يمكن أن يتداخل ويمتزج مع نص مدنس وهذا عندهم حفاظا على حرمة القرآني الكريم وسموه وعلو مكانته .

وقد أخذت مساحة التأثر بالخطاب القرآني تتطور وتتسع ، فمنهم من يستحضر المعنى القرآني ومنهم من يستحضر اللفظ القرآني ومنهم من

يستحضرهما معا ، في الشعر والنثر تحت مسميّات منها ما هو تراثي ومنها ما هو مستحدث على نحو: التضمين والاقتباس والسرقات ، والتناص ، وتوظيف التراث ممّا ترك انطباعا لدى علماء البلاغة وعلماء الدّين بصفة عامة يضعون مسطرة لهذا الاستحضار الذي رأي فيه بعضهم تجاوزا وتلاعبا بالنص القرآني، وفيهم من لا يرى بأسا في هذا التناول للخطاب القرآني ، وذلك إذا كان جالبا لأغراض نبيلة تتوافق مع مرامي القرآن الكريم ورسالته السامية ، وهذا ما تحاول أن تستظهره هذه المداخلة في تبيان موقف العلماء من استحضار النص القرآني في النصوص الادبية .

الخطاب القرآني :

الخطاب القرآني هو رسالة لسانية وشهادة عن رسالة عقائدية وهو سلطة روحية ربانية توافرت فيه جميع المقومات لتحقيق هدفٍ سام ومهيأ للتوصيل ملائم للفطرة الإنسانية وهو كذلك سلطة فنية لسموه الأدبي ومخالف ومباين للأجناس الأدبية ، واستطاع هذا الخطاب أن يربك ثنائية النثر والشعر1، فهو خطاب لساني تحكمه بنية لغوية تستمد قواعدها من اللسان العربي ، ويشهد على عقيدة ربانية لها أصولها وأحكامها ولم يخرج عن سنن كلام العرب لفظا ومعنى ، وفي تركيبه وأسلوبه ولكنه بلغ الذروة في بلاغته .

القرآن الكريم نص يحمل مجموعة من الخطابات ، والنص خطاب مثبت بالكتابة2، وبين النص والخطاب من الاختلاف والاتفاق ، والقرآن الكريم انتقل من الخطابية إلى النصيّة وذلك إذا اعتمدنا على الملفوظ والمكتوب في تحديد المفهومين ، والقرآن باعتباره شكلا مغلقا له بداية ونهاية

فهو نص على حد تعبير عبد الملك مرتاض3، فالخطاب القرآني يشكل رسالة لغوية ناجحة وملائمة في سياق تنزلها ، ممّا يجعل منه نصا يمتلك قدرات تواصلية فائقة4 فيؤثر في النفوس ويحرّكها نحوه لتتقبله وتُقبل عليه انطلاقا من نظامه اللغوي ونظمه البديع .

الخطاب الأدبي :

الخطاب الأدبي خطاب يتماهى عن المألوف ، راق في لغته وأسلوبه ورسالته ويمكن اعتبار خطاب الأدبي " توليد لغة من لغة ؛ أي أن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة أخرى وليدة هي لغة الأثر الفني ، ويعتبر هذا التعريف فكا لإشكالية الوجود والعدم ، فالحدث الأدبي ، هو في صميمه عملية "إيجاد"، ولكن الإيجاد المتعذر ، إذ لا شيء يفنى ، وكل موجود متحول ، فالخطاب الأدبي"تحويل" لموجود. "5، فهذا التحوّل في اللغة وحمولتها من شأنه أن يولّد معان جديدة غير مألوفة؛ لتصوّر الموجود المتحوّل المختلف في صياغته عن الموجود الممكن .

وأدبية الخطاب في إنّ الأدب هو ذلك الكلام الذي يستعصي على امتحان الصدق ، لا هو بالحق ولا هو بالباطل ، فلا وجود في النص الأدبي لجملة صحيحة أو باطلة6، فهو خطاب يستحضر المتعة الفنية ، ويبحث عنها ، فهي غايته الأولى والأخيرة ، ثم يقدّم أهدافه الإنسانية أو الفردية والتي تكوّن مرجعيته الفكرية بإعادة صياغة الواقع بثوب جديد يلتبس فيه الصحيح من الباطل ، وتلك هي إذن طبيعة الأدب المتناهية بأبعادها الشكلية والفنية .

خصائص الخطاب القرآني :

الخطاب القرآني باتفاق جميع علماء الأصول وعلماء اللغة والبلاغة خطاب معجز، له أسراره البلاغية فنظامه الصوتي والإيقاعي من فواصل ومقاطع وأساليب أخذت بعقول فطاحلة اللغة وأربابها والرماني يقسم البلاغة إلى ثلاث طبقات : إن ما كان في أعلاها ، وهو بلاغة القرآن ، انتظمت فيه أنماط من الكلام ، يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على انفراد في نعوتهما كالمتضادين ؛ لأنّ العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره.7 ، فكان القرآن الكريم آية معجزة

ويذكر الباقلاني بأنّ النّظام شيخ المعتزلة يقول بأنّ القرآن نفسه غير معجز وإنما كان أعجازه بالصرفة وقال "إنّ الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام؛ والعرب إنما لم يعارضوه ، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، وسلب علومهم به8 . ، فردّ إعجاز القرآن الكريم بالصرفة مردود لأنّ العرب ما تكلموا بمثل القرآن قط ، ولم يأت منهم نظيره قبل مبعث النبي ، ولو نظموا مثله قبل مجيء الرسول لقالوا هذا مثل نظمنا وإنما صرفنا الله عنه ، ولكنهم لم يقولوا ذلك ، فدل على أنهم لم يقدروا عليه لا في الحاضر ولا في المستقبل9 ، ويرى الباقلاني بأنّ القرآن الكريم خرج عن جميع أوزان كلام العرب ونظمهم فهو خطاب معياري لم يستطع العرب أن يأتوا بمثله وقد تحداهم القرآن وهم صناع الكلام وأرباب البيان وسادة الفصاحة والبلاغة ، فصرفته في عجز هؤلاء في معارضته أو في الإتيان بما يشبهه في نظمه ونسجه .

الاختلاف الفني والفكري بين الخطاب القرآني والخطاب الأدبي :

والأدباء يختلفون في التصرّف في التصوير فمنهم من يصور القبيح جميلا والجميل قبيحا ومنهم من يموّه في التصوير ، في حين القرآن يقف موقفا صارما اتّجاه القبيح أو الجميل ، فهو ممارسة لغوية له قيم جمالية وينقل استعمال اللغة إلى تخطي المألوف ، يدفع إلى الشك والحذر والترقب ويكفل التفاعل بين طرفين ، المتلقي واللغة الادبية10 ، أما النص القرآني فهو نسق مغلق ، ثابت ، موضوعي ، مدلول ، حاضر ، حرفية النص ، الاستقلالية ، أما النص الأدبي يختلف عن النص القرآني : كونه نسقا مفتوحا ويمثل حركة مراوغة ومستمرة ودلالته غير محدودة لانهائية ، ويمثل مجموعة من الدوال ، ونص حاضر وغائب ونصية النص والترسيب والإزاحة11

وعليه " فالخطاب القرآني بوصفه نموذجا لفظيا متعاليا يأتي على رأس هذه الخطابات ، بل من أشدها تميزا على الإطلاق ، وذلك لما يحمله من خصائص نوعية تتضمن له الفرادة والتميز ، فهو خطاب إلهي مطلق لا نهائي في دواله / ألفاظه و مدلوله / معانيه ، إنه من أكثر الخطابات إقناعا وتعبيرا للحقيقة وتفعيلا للحدث ، لا يدخله الخلل أو النقصان."12 ، وبذلك لا مجال لتداخل النصين أو الخطابين لما بينهما من الاختلاف الكبير إلا إذا كان هذا التداخل في سياق يتوافق مع طبيعة الخطاب القرآني وللخطاب الأدبي خصائص تختلف عن أنواع الخطاب الأخرى ، وذلك حتى نتمكن من معرفته عن باقي الخطابات التي تمارس سلطتها على القارئ أو تمارس انجذابها نحو القارئ ، بوسائل وأدوات يختص بها دون غيره من الخطابات ، وهو يستمدّ وجوده من قيّم شعورية وقيّم **تعبيرية**13

أثر الخطاب القرآني في النفوس ومحاولة معارضته :

تحدّى القرآن الكريم العرب قاطبة ، ممّا جعلهم يقفون منبهرين ومتأثرين بقوة بيانه وجودة صياغته ، فانبرى بعض المتنبئين على معارضة القرآن الكريم ظنّا منهم بأنّهم يبلغون مرادهم ويستطيعون أن يحوزوا ما حازه القرآن من فضل بلاغي وبياني ولغوي وفكري ،(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) [يس : 69] وكانت تلك البدايات الفاشلة مع المتنبئين والكهان في اتّباعهم النّسق الإيقاعي المسّجع وَهْمًا منهم في معارضة القرآن الكريم ولاعتقادهم مدى تأثير هذا السجع في النفوس ، على نحو ما يؤثر القرآن الكريم في النّاس و"إنّ للإيقاع السّجعي أثرا في النفوس حينما يأتي مع الإيحاءات الخطابية لذا نلحظ رغبة الكهان في استهواء من يستمع إليهم والتّأتّي إلى نفوسهم من هذا الباب بالتّوهم والتخيّل ، فقط ظنّوا أنّ الصياغة القرآنية لا تفترق عن الصناعة الكهنوتية ، وعلى ذلك كان جلّ محاولاتهم احتذاء السّور القصار لأنّها تقترب أسلوبيا لا معنويا من سجع الكهان المتمرّسين على مزاولته ، أي أسلوب النفس القصير الذي يضاهي قصر الآيات ، وقد ضاق بهم الأمر وهكذا توهموا ، عندما حاولوا الاتيان بمثله توهما أنّ الاثنين من جنس واحد فحاولوا وأخفقوا . "14، وهذه المحاولات تكاد تكون استحضارا لبعض خصائص الأسلوب القرآني ، ولكن توظيفها من طرف هؤلاء لم يكن سوى لأغراض شخصية ممّا جعل هذه المعارضة الأسلوبية تتّسم بالفشل وبالاستهجان من المتلقي ، وممّا جاء من سجع مسيلمة الكهان كما أرودته كتب التاريخ والرواة قوله : " والشاء وألوانها وأعجبها السّود وألبانهم ، والشّاة السّوداء واللّبن الأبيض إنه لعجب محض ، وقد حرّم المذق فما لكم لا تجتمعون"15 وقد حفلت كتب التاريخ والسيّر بالكثير من هذه الشطحات التي حاولت أن تقتفي أثر الخطاب القرآني .

تأثير القرآن الكريم في الشعر:

البحث في تضاريس الفكر العربي يجد بأنّ الشعر العربي يمثل وجها من أوجه المجتمع العربي الجاهلي أولا ثم الحضارة العربية الاسلامية ثانيا ، فالشعر العربي لا يمثل هذه الحضارة كلها وإنما هو تعبير عن صورتها الحضارية ، لذلك ارتباط العربي بالشعر هو ارتباطه بالحياة وبالوجود ، فالخطاب الشعري هو خطاب العربي المعَبر عنه بالفكر وبالقيم .وتعبير عن الذات وعن الجماعة ، فحين يستلب الشعر ويزحزح من مكانه أو من موضعه الذي ألفه العربي ، سيكون فيه من التخلخل في الذات العربية وفي تماسك الجماعة .

والشعر العربي سيشهد ثورات عليه ، منها الثورة الدينية التي قلّصت من مساحته أو أنّها قيّدته بقيود وحددت له المسطرة التي يسير عليها ولا يتجاوزها " واتخذ الاتجاه الاسلامي سبيله إلى النقد عن طريق توجيه الشعر نحو المبادئ الاسلامية ومطالبة الكتاب والشعراء بإحياء تلك المبادئ والسير على هداها ، وعدم الخروج على ما توارثناه من القيم الدينية"16، فهي دعوة إلى أسلمة الشعر وانقياد الشاعر إلى قيّم ومبادئ الدّين الإسلامي الحنيف ، لترسوا أخلاق جديدة لا عهد للعرب بها ، ومن ذلك موقف الشعراء العرب في بداية الدعوة الإسلامية موقف المعجبين بأخلاق القرآن ورسالته الإنسانية السامية فأقبلوا على قراءته وتلاوته والتأمل في آياته فجاءت أشعارهم مكللة بأريج ونفحات البلاغة القرآنية

وقد سار الشعراء ومعهم النّقاد سير مقاصد القرآن يدعون ويتعلمون ويقبلون على القرآن متأثرين بنهجه وببلاغته وبنظمه " فأثر القرآن أثرا غير

مباشر في النقد العربي ودفعه إلى الأمام دفعات قوية بفضل جهود علماء " الاعجاز " الذين حاولوا أن يثبتوا اعجاز القرآن البياني بمقارنته بالشعر العربي ، والبيان العربي عامة ، واستخدموا في ذلك الوسائل التي وضعها في أيديهم النقاد ، وإن لم يعترف بعضهم بهذه الوسائل كالباقلاني الذي رفض أن يأخذ بمنهج البلاغيين في تحقيق اعجاز القرآن "17، فجلّ هؤلاء البلاغيين العرب القدامى وقفوا موقفا واحدا من إعجاز البلاغي للقرآن

فالخطاب القرآني مرجعيته ربانية وهو يحمل كل الصفات الأزلية السرمدية وللقرآن الكريم طريقة في النظم لا تشبهها طرائق تشكيل النصوص وقد رأى الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز للخطاب القرآني خصائص لم يعرفها العرب قبل نزول الوحي وهذا الاعجاز ليس في الكلمات أو في الالفاظ أو في الجمل أو في الفواصل وإنما في نظمه البديع" فما لبثت أن ظهرت تلك الألفاظ والأساليب في لغة الشعر والنثر ، وأخذ الخطباء والشعراء يصوغون أثارهم على هديه، مستمدين مقتبسين من نوره ما يقوّم ألسنتهم ، ويكفل لهم تنمية الذوق وتربية ملكات البيان وإحسان القول وإجادته ، لما كانوا يحفظون من آياته ويتلون ملكات من محكمها آناء الليل وأطراف النهار ."18 ، فاستمدت الكثير من المعاني من القرآن الكريم ، بل إنّ بعضهم وظف النّص القرآني خدمة لأغراضه السياسية أو الاجتماعية أو الدينية ، لتكون قصيدته على طراز فني راق.

دوافع استحضار الخطاب القرآني في الأدب:

ويقول ابن الأثير في معرض حديثه عن أهمية القرآن للكاتب وللشاعر وللأديب بصفة عامة ، وعن مواضع الاقتباس الجائز من القرآن

الكريم؛:"لأنّ فيه فوائد كثيرة ، منها ما يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة ومواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق، ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحرا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام، فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته فإنه تجارة لن تبور ، ونبع لا يغور وكنز يرجع إليه ، وذخر يعول عليه ."19، فابن الأثير يضع مسطرة أخلاقية في استحضار الخطاب القرآني في النص الأدبي ، فهو لا ينكر الاقتباس منه بل إنّه يدعو إلى التمثل بالقرآن الكريم، والاستحضار منه، ولكن في انتباه واحتراز وتأمل فيما يقتبس من رموز وإشارات .

وعند الكفوي هو أن يضم المتكلم إلى كلامه كلمة ، أو آية من آيات الكتاب العزيز خاصة ، ثم يحدد مواضعه فهو يكون في الخطب والمواعظ ومدح الرسول والآل والأصحاب ، ولو في النظم فهو مقبول ؛ وما كان في الغزل والرسائل والقصص فهو مباح ، ويتعوذ الكفوي ممّن ينقل مما نسب إلى الله تعالى إلى نفسه أو يضمن الآي في معرض الهزل ولا يكون االقتباس إلا من القرآن والحديث .وقد توسع بعضهم في الاقتباس.20

أنواع استحضار الخطاب القرآني :

والاقتباس عند البلاغيين نوعان :

اقتباس نصي يلتزم الشاعر بلفظ النّص القرآني وتركيبه

واقتباس إشاري وهو أن يأخذ الشاعر من القرآن الكريم ما يشير به إلى آية أو آيات من غير الالتزام بلفظها وتركيبها21 .

ويذكر صفيّ الدّين الحليّ الاقتباس أن يُضمن المتكلم كلامه كلمة أو آية من آيات الكتاب العزيز خاصة وهو على ثلاثة أقسام :

1- محمود مقبول

2- ومباح مبذول

3- ومردود مرذول 22

فهذه القواعد التي وضعها علماء البلاغة قديما تحدد مواضع وموانع استحضار النص القرآني ، فهي بمثابة الرّخصة التي تمنح للشاعر حين يستعين بالنصوص القرآنية؛ حتّى لا يتم العصف بالنّص القرآني ويستهتر به عند استعماله ، فلابد من مراعاة السياق وطريقة الاقتباس التي تناسب هذا النص المقدس، وقد تعامل الكثير من الشعراء بكثير من الحذر مع الخطاب القرآني وتوافقت أساليبهم مع التوظيف المناسب

يقول الفرزدق من **الطويل**23:

فَلَمَّا عَتَا الجِحَادُ حِينَ طَغَى بِهِ غِنًى قَالَ : إِنِّي مُرْتَقٍ فِي السَّلَالِمِ
فَكَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ نُوحٍ سَأَرْتَقِي إِلَى جَبَلٍ مِنْ خَشْيَةِ المَاءِ عَاصِمِ
رَمَى اللهُ فِي جُثْمَانِهِ مِثْلَ مَا رَمَى عَنِ القِبْلَةِ البَيْضَاءِ ذَاتَ المَحَارِمِ
جُنُودٌ تَسُوقُ الفِيلَ حَتَّى أَعَادَهَا هَبَاءً وَكَانُوا مُطْرِخِمّي الطَّرَاخِمِ*

فالشاعر يستلهم معانيه من القرآن الكريم، وقد توحدّ السياق مع المعنى، دون اخلال بالنّص القرآني أو العبث به، فالمعنى يتوافق مع السياق الشعري للشاعر ، ففيه من التلميح إلى المعنى القرآني من خلال قصة ابن النوح وقصة الفيل الواردتين في القرآن الكريم ولعلّ الشعر الحديث وجد في النّص

القرآني منبعا لمعانيه التي ظلّ يبحث عنها الشعراء بحثا عن استدعاء الفكرة ، فالشاعر عبد المعطي الحجازي في تعظيمه للرّئيس والزعيم الثوري القومي جمال عبد الناصر ونضاله يستلهم المعنى من ظلال القرآن الكريم ويستحضر معنى ليلة القدر ويحمل أجواءها على ما يقوم به هذا الزعيم ليضفي عليه تلك القداسة والمهابة النضالية ، يقول مخاطبا جمال عبد الناصر:

أَوْ أَنَّهَا هِيَ لَيْلَةُ الغَارِ التي سَتَغِيبُ فِيهَا

ثُمَ تُشْرِقُ في المَدِينَةِ24

موانع استحضار الخطاب القرآني :

فمن يحاول أن يبعد الخطاب القرآني من اللاهوتية إلى الناسوتية ، على نحو ما فعل اركون وأدونيس ونصر حامد أبو زيد وحتى بعض الصوفيين قبلهم فإنهم بذلك يريدون الاستهتار والعبث بالخطاب القرآني وإنزاله منزلة الأنسنة لا منزلة الوحي ، وقد يكون هذا التأثير إذا لم يكن له توظيفا ابداعيا يتناسب ورسالة الشعر أقرب منه إلى الوعظ وقديما قال علي بن الجهم يمدح أحد الخلفاء :

اللهُ أَكْبَرُ والنَبيُ محمدُ والحقُ أَبْلَجٌ والخليفة جَعْفَرٌ

فردّ عليه الشاعر مروان بن أبي الجنوب يسخر منه :

أراد ابنُ جهم أن يقولَ قصيدة بمدح أمير المؤمنين فأدّنا

وتوظيف المستهجن الذي يتلاعب بالمعنى الأصلي وهذا الاستحضار أو التضمين كما سماه القدامى من شأنه أن يخلّ معه المعنى ويمج معه الذوق لإيغاله في التضمين المفسد ،

قول الشاعر أمل دنقل من قصيدته لا وقت للبكاء :

وَالتِّينِ وَالَّزيْتُونِ

وَطُورِ سِنِينَ ..وَهَذَا البَلَدِ المَحْزُونِ25

فما الذي غيّره أمل دنقل من هذا النص القرآني سوى حذف لفظة " الأمين "ووضع مكانها لفظة "المحزون" " فإنّه لا يجوز درج آيات القرآن الكريم في غضون الكلام من غير نبيين ، كي لا يشتبه ، ..فإنّ القرآن الكريم أبين من أن يحتاج إلى بيان ..وذاك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها ، بل يؤخذ جزء منها ويجعل أوّلا لكلام أو آخرا ، هذا إذا لم يقصد به التضمين ؛ فأما إذا قصد التضمين فتؤخذ الآية الكريمة وتدرج درجا ."26،

وقام صلاح عبد الصبور باستدعاء شخصية الرّسول العظيم في قصيدة " الموت بينهما " " فقد اعتمد الشاعر في استدعائه للشخصية على التناص القرآني ، حيث بدأ القصيدة ب " صوت عظيم " يتمثل في النص القرآني المضمن ، وتبعه ب " صوت واهن " يتحاور فيه الشاعر مع الآيات الواردة في الصوت العظيم ، من خلال استعارته لدور الرسول الكريم الذي يتوجه الخطاب إليه في النص القرآني "27، حيث يقول :

صَوْتٌ عَظِيمٌ ،

والضُحَى ،

وَاللَيْلِ إذا سَجَى ،

مَا وَدَعَكَ رَبُكَ ، وَمَا قَلَى ،

وَلَلْآخِرة خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُكَ فَتَرْضَى ..

ثم قال في بداية محاورته للصوت العظيم :

" صوت واهن "

أَيْنَ ؟

أَيْنَ عَطَائي يَا رَبَّ الكَوْنِ .

فماذا صنع صلاح عبد الصبور في قصيدته هاته، غير رصف الآيات القرآنية ، فحوّلها إلى مقاطع شعرية ذات إيقاع ولأنّ؛ "النص" من منظور التناص " يتتجه التحويل والتسريب مما يعني أن ذاك النص الأدبي لا يتحرر إطلاقا من قطبي المرسِل والمرسَل له / المنشء والمتلقي ، فإنّ كليهما يؤثران على تسويغ " النص " وإحداثه ، فالنص يكون إيقاع مقتطفات معلومة تارة ومجهولة تارة من خلال شباك آفاق القارئ / المتلقي ، وفي هذا السياق النصي عندما ينقّب عن نصية النص القرآني أرى هناك طرفين للنص، أحدهما : القائل / المتلقي وهو محمد صلى الله عليه وسلم وثانيهما: المنشء / المرسل وهو الله سبحانه وتعالى ، والذي دار بينهما هو الوحي المتلو أي الكلام/ الإلهي/ النص القرآني.."**28**، فاستحضار سورة الضحى في قصيدة صلاح عبد الصبور ، هو بمثابة تغييب الخطاب القرآني وتحويله عن مساره الديني الذي أنزل من أجل ، فهي سورة خاصة بالرّسول، فالمتلقي هو الرّسول ، والمخّاطب هو الرّسول عليه السلام ، وسياقها القرآني تذكير وتوجيه وتنبيه من الله سبحانه وتعالى ؛ و" لأنّنا مع النص القرآني نستنبط شرعا ودينا وحلالا وحراما وأسرارا وأحوالا وإعجازا ، ومع النص الشعري نستنبط صنعة ولقانة"**29** ، فكل محاولة أدبية تحاول إبعاد الخطاب القرآني عن مساره التشريعي والعقائدي تكون محاولة بعيدة عن الأغراض والمقاصد التي رمى ويرمي إليها الخطاب القرآني .

خاتمة :

إنّ الخطاب القرآني خطاب إلهي رباني معجز ، وهو خطاب منشئا لأمة استطاعت أن تستمد منه روحها ووجودها الفكري والحضاري وأبعاده لا تنتهي بزمان أو مكان ممّا يجعله خطابا مقدسا ووعاء لكل العلوم والمعارف، وتفرّد بخصائص بلاغية وفنية وفكرية أربكت الشعراء والكتاب ، فلجأ إليهم هؤلاء يقتبسون ويستمدون معانيهم منه ؛ ليفجروا تلك الطاقات الدلالية في نصوصهم، وتتقوى بالخطاب القرآني المستحضر في خطاباتهم الشعرية والنثرية، ولكن الاسراف في الاقتباس من القرآن الكريم يحدده السياق السليم، ولا يخضع لعشوائية الشاعر والأديب ولأغراضه الشخصية، فيتحول الخطاب الأدبي إلى خطاب ديني يسيطر عليه الوعظ أو يتصادم مع روح العقيدة أو يخلّ بغرض الخطاب القرآني ؛ فاستحضار الخطاب القرآني الكريم في الخطاب الأدبي يخضع لمعايير أسلوبية وفنية وفكرية وأن يكون هذا الاستحضار ضرورة تضيف للخطاب الأدبي إضافات يستشعرها المتلقي ولا يشعر بالنشاز في السياق الأدبي ولا تضعف العمل الفني وأن يضيف جديدا هذا ألاستحضار لأنّ الخطاب القرآني هوخطاب (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)[الشورى 11]

الهوامش :

1- ينظر : لطفي الفكري محمد الجودي : جماليّة الخطاب في النّص القرآني ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1435ه/ 2014م ، ص 100 2 – سعيد يقطين : انفتاح النص الروائي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2 ، 2001م ، ص 12 .

3- عبد الملك مرتاض : في نظرية النص الأدبي ، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007م ، ص 18 .

4- ينظر : خلود العموش : الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، عالم الكتب الحديث ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1429هـ / 2008م ، ص 8 .

5- عبد السلام المسدي : النقد والحداثة ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1983م ، ص 57 .

6- ينظر: تودوروف تزفيتان : الشعرية ، ترجمة : شكري المبخوت ، رجاء بن سلامة ، دار توبقال ، المغرب ، ط1 ، 1987م ، ص 35 .

7- الخطابي : بيان اعجاز القرآن ،تحقيق : محمّد خلف الله أحمد ، محمّد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، د .ت . ط ، ص 26 .

8- ينظر : الباقلاني أبي بكر ابن الطيب : اعجاز القرآن ، تحقيق : أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د.ر.ت.ط ص 8 .

9- الباقلاني أبي بكر ابن الطيب : نكت الانتصار ، تحقيق : محمّد عصام القضاة ، دار الفتح ، عمان ، الأرن ، ط1 ، 1422ه / 2002م ، ص 289 .

10- ينظر : لطفي محمد الجودي : جمالية الخطاب القرآني ، ص 90 .

11- ينظر :محمد زبير عباسي : التناص مفهومه وخطر تطبيقه على القرآن الكريم ، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، الجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام آباد ، باكستان ، 1436ه / 2014م ، ص 248 .

12- لطفي فكري محمد الجودي : جمالية الخطاب في النّص القرآني ، ص 92

13- ينظر : سيد قطب : النّقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط4 ، 1400هـ / 1980م ، ص 19 .

14- مشكور كاظم العوّادي : معارضة القرآن في المعيار الأسلوبي ـــ ممّن ادّعي النّبوة أنموذجا ـ مجلة مركز دراسات الكوفة ، العراق ، المجلد الأول ، العدد السابع ، 2007م ، ص 17 .

15- الباقلاني : اعجاز القرآن ، ص 239 .

16 – محمد زغلول سلام : النقد الأدبي الحديث ، أصوله واتجاهاته وروّده ، دار المعارف ، الاسكندرية ، مصر ، د.ر.ت.ط ، ص 158 .
17 – محمد زغلول سلام : المرجع نفسه ، ص 151 .
18 – الفكيكي الهادي : الاقتباس من القرآن في الشعر العربي ، دار النمير ، دمشق ، سورية ، ط1 ، 1996م ، ص 8 .
19– ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، د.ر.ط ، 1431ه / 2010م ، ج1 ، ص 19 .
20 – الكفوي أبي البقاء أيّوب بن موسى الحسيني القريميّ : الكليّات ، تحقيق : عدنان درويش ، محمّد المصري ، مؤسسة الرسالة ، ط2 ، 1433هـ / 2012م ، ص 129 .
21 – الفكيكي الهادي : الاقتباس من القرآن في الشعر العربي ، ص 13 .
22– صفيّ الدّين الحليّ عبد العزيز بن سرايا بن علي السّنبسي الحيّ : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، تحقيق : نسيب نشاوي ، دار صادر بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1412ه / 1992م ، ص 326 .
23– الفرزدق : الديوان ، شرحه وضبطه وقدم له ، علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1407ه / 1987م ، ص 613 .
* المطرخمون : المغرورون .
24 – حجازي أحمد عبد المعطي : الأعمال الكاملة ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1982م ، ص 484 .
25– أمل دنقل : الأعمال الكاملة ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 2010م ، ص 254 .
26 – ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج2 ، ص 323 .
27 – أحمد مجاهد : أشكال التناص الشعري دراسة في توظيف الشخصيات التراثية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر ، د.ر.ط ، 2006م ، ص 125
28– محمد زبير عباسي : التناص مفهومه وخطر تطبيقه على القرآن الكريم ، ص 230
29 – المرجع نفسه ، ص 277 .